

"يوم السعادة"... فاقد الشيء لا يعطيه!

في خضم الأزمة الصحية العالمية التي سببها فيروس كورونا المستجد، تصدرت فنلندا قائمة الدول الأكثر سعادة في العالم للمرة الثالثة على التوالي، بحسب التصنيف السنوي للأمم المتحدة بينما غاب اسم السودان عن القائمة الرسمية التي ضمت 153 دولة. ويصادف صدور هذا التقرير مع اليوم العالمي للسعادة الذي يحتفى به في العشرين من آذار/مارس من كل عام، وجاءت الدنمارك في المرتبة الثانية من تصنيف "وورلد هابيست ريبورت" الذي يستند إلى بيانات مجمعة من أشخاص في 156 بلداً عن مدى سعادتهم فضلاً عن معايير مرتبطة بمتوسط العمر المتوقع ومعدل الدخل والدعم الاجتماعي، وتلتها سويسرا في المرتبة الثالثة. ويستند التقرير الذي تضمن 153 دولة، إلى ستة متغيرات أساسية وهي نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في كل دولة، الدعم الاجتماعي، مؤشر الصحة، الحرية، الكرم، وغياب الفساد.

وجاء الترتيب كما يلي: (1- فنلندا، 2- الدنمارك، 3- سويسرا، 4- أيسلندا، 5- النرويج، 6- هولندا، 7- السويد، 8- نيوزيلندا، 9- النمسا، 10- لوكسمبورغ). واحتل جنوب السودان وأفغانستان المركز قبل الأخير والأخير على التوالي "صحيفة الانتباهة 20 آذار/مارس". فماذا يعني يوم السعادة؟ وكيف يحتفل بالسعادة في يوم واحد ولا نعمل على تحقيقها في العمر كله؟ وماذا بعد العمر؟ ولماذا يحتاج العالم إلى تحديد الشقي من السعيد؟ وهل مقاييس التحديد تعكس الواقع الذي يعيشه الإنسان في هذا العالم اليوم؟ وما هي المفاهيم الصحيحة التي تجلب السعادة لبني الإنسان وتجعلهم يقدرون كل شيء في الحياة بمقداره الصحيح فتنبع معاني السعادة الحقيقية؟ أسئلة تحتاج إلى إجابة. فالدول التي احتلت مراكز متقدمة في إحصائيات السعادة هذه، وجدنا أن السعادة عندهم آنية وإن طال أمدها، فهم يبحثون عن السعادة في دار الكبد والتعب والعناء، وكذلك لو نظرنا إلى ما وضع من أهداف لتحقيق السعادة، لوجدنا أن تحقيقها يدع الإنسان يتساءل ماذا بعد؟ وهل هذا التحقيق للسعادة بهذا الفهم أوجد عندهم الراحة والطمأنينة المنشودة أم لا؟

اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم (281/66) بإعلان يوم 20 آذار/مارس من كل عام يوماً دولياً للسعادة اعتباراً من عام 2013، واستناداً إلى قرارها رقم (309/65) بتاريخ 2011/7/12 والذي دعت فيه الدول الأعضاء للعمل على وضع تدابير إضافية تجسد على نحو أفضل أهمية السعي إلى تحقيق السعادة والرفاه في سياق التنمية. ولكن هل الاحتفال في يوم 20 آذار/مارس من كل عام يكفي لتخفيف وقع الحياة المادية الصرفة في الدول الرأسمالية التي جعلت الإنسان أيضاً يتحول إلى آلة تتحرك وتحيا بلا إحساس، إضافة لغياب معظم مسببات السعادة النابعة من الأعماق وكثرة مسببات السعادة المفتعلة غير الحقيقية والتي ما قللت من نسب الانتحار والأمراض النفسية؟ وقس على يوم السعادة عيد الحب كذلك، ويوم الأمل، مما يبرهن على فشل الحضارة الغربية في جلب السعادة للإنسان، لذلك احتاجوا أن يخصصوا لها يوماً،

مثل يوم العمل، ويوم الخضر، ويوم البيئة... الخ، وكلها تدل على نقص كبير في كل جانب ابتدع له عيد للتغطية على قصور النظام الرأسمالي في رعاية شؤون الناس وتوفير الحياة الكريمة الهانئة، ويعكس يوم السعادة في كثير من بلدان العالم أحد مظاهر النفاق الإعلامي لتغطية ما فيه الناس من شقاء سببه النظام الرأسمالي النفعي الذي يحقق للإنسان القيمة المادية فقط، ويعد كل القيم الروحية والخلقية والإنسانية، وإن وجدت فهي نشاز فيصبح الاحتفال في كثير من البلدان ليس نابغاً من القلب، بل هو أقرب إلى صناعة الوهم، حيث يزرع القلب تحت ثقل هموم لا تترك مكاناً حتى لطرح سؤال عن معنى السعادة!

لقد مر ذلك اليوم ولم يشعر به أحد، وعلى سبيل المثال لم تحقق الولايات المتحدة الأمريكية أية مكاسب في السعادة المبلّغ عنها من المواطنين، على الرغم من التطور التكنولوجي والاقتصادي الهائل خلال نصف القرن الماضي، بل على العكس فقد ارتفعت مستويات عدم اليقين والقلق واتسعت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية إلى حد كبير، والأمر الصادم أن تقرير الأمم المتحدة الأول من نوعه والذي صدر بشهر نيسان/أبريل من عام (2012) بعنوان "تقرير السعادة في العالم"، يؤكد على أن العالم يعيش في تناقضات صارخة، ففي حين نجد التقدم الهائل والمذهل في مجال التكنولوجيا، نجد بالمقابل على الأقل مليار إنسان لا يحصلون على كفايتهم من الطعام، وأن تدميراً مستمراً ومتزايداً للبيئة منتشر في كافة بقاع العالم والدول التي تحقق مستويات قياسية من النمو الاقتصادي لا زالت تعاني وتستسلم للأزمات الجديدة المتعلقة بالسمنة والتدخين والاكتئاب ومرض السكري وغيرها من الأمراض.

إن ابتهاج الغرب وآلته الإعلامية بيوم السعادة هو مجرد غطاء على الشقاء الذي يتقلب فيه بني الإنسان جراء النظم الرأسمالية التي جلبت الشقاء والدمار من أول ما عرفها الإنسان، وسأقت العالم إلى الحروب العالمية والتدمير بالقنابل الذرية والغازات السامة، بل هو نفاق خالص، لأن الغرب يعلم شقاء الحياة التي يعيشها بارتفاع نسب الأمراض النفسية والانتحار رغم توفر الأسباب المادية للسعادة المتهومة.

إن حضارة الغرب لا تستطيع أن تضمن السعادة للإنسانية، بل قطعاً هي سبب الشقاء الذي يتقلب العالم على أشواكه ويصطلى بنيرانه؛ فالحضارة التي تجعل أساسها فصل الدين عن الحياة خلافاً لفطرة الإنسان ولا تقيم للناحية الروحية وزناً في الحياة العامة، وتصور الحياة على أنها منفعة فقط وتجعل الصلة بين الإنسان والإنسان في الحياة هي المنفعة فقط، هذه الحضارة لا تجلب إلا شقاءً وقلقاً دائمين، فما دامت المنفعة هي الأساس فالتنازع عليها أمر طبيعي والنضال في سبيلها طبيعي، والاعتماد على القوة في إقامة الصلات بين البشر أمر طبيعي، لذلك يكون الاستعمار أمراً طبيعياً عند أهل هذه الحضارة وتكون الأخلاق مزعجة لأن المنفعة وحدها ستظل هي أساس الحياة؛ ولهذا فمن الطبيعي أن تنفى من الحياة الأخلاق الكريمة كما نفيت منها القيم الروحية، وأن تقوم الحياة على أساس التنافس والاعتداء والاستعمار. وما هو واقع في العالم اليوم من

وجود أزمات روحية ومن قلق دائم وشر مستطير خير دليل على نتائج هذه الحضارة الرأسمالية التي تحكم سيطرتها على العالم، وهي المسؤولة في المقام الأول عما يجري فيه من ويلات.

إن السعادة الحقيقية هي نيل رضوان الله، وليست إشباع جوعات الإنسان، لأن إشباع جوعات الإنسان جميعها، من جوعات الحاجات العضوية، وجوعات الغرائز، هو وسيلة لازمة للمحافظة على ذات الإنسان، ولا يلزم من وجودها السعادة. هذا هو تصوير الحياة وهذا الأساس الذي يقوم عليه هذا التصوير وهو الأساس للحضارة الإسلامية. لكن الدول التي ذكرت في تصنيف السعادة جميعها تعطي السعادة معاني غير حقيقية، فالسعادة عندهم هي إشباع أكبر قدر من المتع المادية والجسدية، ولم يكتثروا إلى الفرق الشاسع بين المتعة والسعادة، فالمتعة هي اللذة التي يشعر بها الإنسان حين يلي حاجة عضوية أو غريزية، فحين يمتلك الإنسان مالا يشعر بمتعة، وهي لذة إشباع غريزة التملك، والإنسان حين يأكل طعاما لذيذاً، يشعر بلذة الطعام، وهكذا... والمتعة أو اللذة آتية، تنتهي بإشباع الحاجة العضوية أو الغريزية، أما السعادة فهي شعور دائم مصاحب للإنسان في جميع أحواله، يوجد عنده طمأنينةً داخلية، تجعله مرتاح الخاطر، هادئ البال، لا يشعر بوحشة، بل يشعر بالرضا لما هو عليه حاله، ولا يطلب ما في أيدي الناس. هذا المعنى الحقيقي للسعادة لا ينتج إلا عند التلبس بالأفكار والمفاهيم الصحيحة عن الحياة؛ بأن الدنيا دار ممر وليست دار مقر، وأن الله الخالق حقاً علينا أن نلتزم به، وأنه سيحاسبنا على ذلك يوم القيامة. إن دين الإسلام يتجسد معنى السعادة فيه على أنها السعي لنيل رضوان الله تعالى، وقد حددت الشريعة أن من يطع الله تعالى فقد فاز، ومن عصا فقد خسر خسرانا مبيناً، وجعل الجنة والنار والثواب والعقاب على الأعمال، فيصبح معنى السعادة الحقيقية هو نوال رضوان الله تعالى، فكم تكون سعادة المرء حين يستشعر قربه من ربه في تنفيذه للأحكام الشرعية، وكم من جائع سعاده في قلبه أكبر لأن مطعمه حلال، في حين إن كان غنياً ما يكون منزعجا لشعوره بجرمة الطريقة التي جنى بها ماله، أو حتى لأنه لم يؤد ما عليه من زكاة!

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

كتبته للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

غادة عبد الجبار (أم أواب) - الخرطوم